القصص

الأمير السعيد

للكاتب الانجليزى أوسكار وايلد Oscar Wilde

مترجمة بقلم البوزباشى أحمد الطاهر

يقوم تمثال الأمير السعيد على عمود باسق يشرف على المدينة ، وقد كست التمثال لفائف من صفائح الذهب الخالص ، وجُعل له من الياقوت الأزرق عينان ، وأمسك بسيف فى قبضته ياقوتة حمراء . وكان هذا التمثال موضع الاعجاب والفخار من الناس أجمعين ، ينظر إليه عضو من أعضاء المجلس البلدى فيتحدث عنه ويتكلف الوصف والتشبيه حتى يقول « إنه لجميل ، وله من الجمال ما لديك الرياح ، وإن لم تكن له ما لذلك الديك من المنفعة » وكان هذا العضو يحاول ما استطاع فى تشدقه بالحديث أن يمتاز بما للفنانين من بديع الذوق ، وما للعمليين من صدق النظر ، .

وتمر بالتمثال إحدى العاملات ويدها طفلها يبكى لأنها لم تستطع أن تجتذب إليه القمر ، وتقول له مفتخرة بالأمير السعيد « لم لا تكون يا بنى كهذا الأمير ، وما أحسبه بكى فى حياته من حاجته لشىء ؟ »

وينظر الى التمثال رجل قد شاع فى نفسه اليأس ويقول « كم يسرنى أن أرى على الأرض رجلاً قد حاز السعادة كاملة » .

ويطوف بالتمثال أطفال المبرة وهم منصرفون من الكنيسة فى أرديتهم القرمزية ، وعباءاتهم البيضاء الناصعة فيقولون « أليس هذا التمثال شبيها بالملائكة ! ! » فينهرهم أستاذ الرياضة فى حدة وجفاء مستنكراً هذا التشبيه «وانى لكم هذا وأنتم لم تروا واحداً من الملائكة ؟ » فيجيبه الأطفال « نحن لم نر الملائكة جهرة ولكنهم طافوا بنا فى أحلامنا » فيعبس أستاذهم ويتولى .

* * *

فى إحدى الليالى كان يطير فوق المدينة سنونو صغير ، وكان رفاقه قد رحلوا الى مصر وتقدموه بستة أسابيع وتخلف هو عنهم وقد فتن بحب مفردة تقطن شجر الغاب الذى يكتنف النهر ، وكانت أجمل بنات جنسها ، لقيها فى الربيع وهو يطارد يراعة كبيرة صفراء ، فأعجبه خصرها الناحل ، فكاشفها بحبه وابتدرها فى صراحة وبيان « أتأذنين لى فى حبك ؟ » فأومأت إليه إيماءة خفيفة ، فطار من فرط الفرح ، وكانت آية حبه أن يحلق فى الجو طائراً حولها يرتفع أحياناً ويسف بجناحيه أحياناً حتى يضرب بهما صفحة النهر ، فيخط عليه سطوراً من فضة كانت هى تقرأ فيها التحية والاجلال ، وكانت هذه تحيته طوال أشهر الصيف ،

ولقد شاع حديث حبه بين أبناء جنسه ، فتغامزوا عليه يتساءلون عن هذه الصلة التى توثقت بينه وبين المفردة ، وهى ليست بذات مال ، ولها من أقربائها عدد وفير ، وكان النهر غاصاً بامراب المفردات .

ثم رحل رفاق السنونو رحلة الخريف وشعر صاحبنا بعدهم بسأم الوحدة ، وشاع السأم فى نفسه حتى غشى حبه لصاحبته المفردة ، فبدا له مايعيبها من صمتها ، وحدثته نفسه بأنها فتاة مبتذلة ، ولا سيما وقد رآها تداعب الهواء فى خفة ودلال ! ! وهو ان وثق بما لها من طبيعة الاستقرار ، فلا يتفق طبعها مع ما جبل عليه من حب الاسفار ، ولن تكون له إذاً الزوجة الصالحة ، وصارحها يوماً برأيه فسألها « أتظعنين معى ؟ » فهزت رأسها مستنكرة أن تهجر وطنها . ولقد ساءه منها إباؤها ، وصاح فى وجهها « أنت إذاً كنت عابثة فى حبى ؟ سأرحل عن ديارك الى الأهرام ! ! وداعاً ! ! وداعاً ! ! » وطار

طوى نهاره طائراً وأدركه الليل عند المدينة ، فتحسس فيها مهبطاً سوياً ، وساءه أن المدينة لم تعد له العدة لهبوطه ، ثم تراءى له التمثال فطاب له النزول عليه ، واستهواه من المكان هواؤه العليل واتخذه بين قدمى الأمير مقعداً . ثم دار ببصره فى المكان يتبينه ، وقال معجباً « ما أجمله فراشاً من ذهب » ثم طوى رأسه تحت جناحه ، وما لبث أن أحس بقطرة من الماء تسقط عليه فعجب للسماء تمطر بغير سحاب ، والنجوم سافرة بغير حجاب ، وما له يعجب لهذا الجو وهو فى شمال أوربا أشد نكاية بالخلق وأبلغ إيذاء ، ثم خطرت له المفردة وحبها لوطنها المطير وقال «إنها لمؤثرة» ثم قطرة ثانية تسقط عليه فينحى باللائمة على هذا التمثال القائم « أما فيه على طول قامته عاصم من الأمطار ؟؟ . » « سآوى الى رأس مدخنة لعل فيها من المطر تقية » وهم بأن يطير فشخص ببصره الى السماء ورأى . . . . وما أعجب ما رأى . . . . غشيت الدموع عينى الأمير السعيد ، وهطل الدمع على خديه الذهبيين مدراراً ، وبدا وجهه تحت سنا البدر فى حلة من الجمال ،

أشفق السنونو من بكاء الأمير السعيد وقال له « من أنت؟ » قال « أنا الأمير السعيد » قال « وما بكاؤك فى هذه الساعة وقد بللتنى دموعك ؟ » قال « كنت حياً وكان لى قلب كقلوب الناس ، وما عرف الدمع الى عينى سبيلاً ، كنت أسكن قصر (البال الخالى) وكان الحزن لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ، وكنت أمضى سحابة اليوم ألهو وألعب مع رفاق بين الزهر والشجر ، وأقضى هزيعاً من الليل أطرب وأرقص فى بهوه الفسيح ، وكان يحيط بالقصر حائط لم أحفل بما وراءه ، وكان كل ما حولى جميلاً ، طربت لهذه الحياة حتى دعتنى حاشيتى بالأمير السعيد يحسبون السعادة فى الطرب . الى أن أدركنى الفناء فأقامونى على هذا الشرف ، أرى منه كل ما فى المدينة فلا يقع بصرى إلا على ما تكره الأبصار ، ولا يمتد إلا ليرتد حسيراً ، ولى قلب قد من الرصاص ولكن لا محيد لى عن البكاء . »

عجب السنونو فى نفسه من هذه القصة ، وزاد عجبه ان القلب قد قدّ من الرصاص ، والجسم من الذهب

قال الأمير فى صوت هادىء ونغم موسيقى ، : « فى أقصى المدينة دار فيها البؤس ، وفيها الشقاء ، وفيها أم قد ألح عليها الفقر العنيف . حتى شحب وجهها ، وغابت نضارتها . واحمرت يداها من فرط ما تعانيان من وخز الابر ، وهى جالسة الى منضدة وبين يديها ثوب من الحرير توشيه (بزهر المواطف) وتعده لأجمل وصيفات الملكة ، تريد أن تزدهى به فى مرقص يقام فى القصر غداً . وانى لأرى الأم من نافذة الدار وأرى ولدها الصغير طريح الفراش ، تضطرم فى أحشائه نار الحمى ، ولا عاصم له من شرها إلا شربة من عصير البرتقال ، وأنى لهذه الوالدة بعصير البرتقال ؟ — انها تسكب فى فمه ماء النهر ، وهو لا يروى صداه ، ولا يدفع جواه ، هذه رسالتى أيها السنونو الصغير ، اخلع عن قبضة سيفى هذه الياقوتة ، وألق بها بين يدى الأم البائسة ، فأنا فى موقفى هذا لا أستطيع حراكاً بما شدت به قدماى الى هذا العامود » .

برم السنونو بهذا الأمر واستعفى منه الأمير قائلاً « إن لى فى مصر من يترقب عودتى . أولئك هم رفاقى ترفرف أجنحتهم فوق نهر النيل يناجون أزهار اللوتس العظيمة ، وما أحسبهم الآن إلا آوين الى مضاجعهم فى مقبرة الملك العظيم ، المضطجع فى تابوته الموشى ، وقد ضمت لفائف التيل الأصفر جسده المحنط بالتوابل والأفاويه ، ويحيط بعنقه قلادة من الكديش الأخضر الشاحب ، وتمتد يداه كأوراق الشجر الذابلة . »

توسل الأمير السعيد للسنونو أن يقيم معه الليلة ، وأن يبلغ رسالته الى ذلك الطفل الصادى ، وتلك الأم الحزينة ، قال السنونو أنا لا أعطف على الأطفال ، فقد كنت فى الصيف الماضى مقيماً على النهر ، وكان هناك صبيان يحصباننى بالحصى وهما ولدا الطحان ، ولم يكن الحصى يصيبنى لما اشتهرت به طائفتنا من خفة الحركة ، وسرعة الطيران ، ولكن الذى يحزننى هو ما ينطوى عليه عملهما من المهانة لنا والتحقير لشأننا »

طافت بوجه الأمير سحابة حزن أشفق منها السنونو ولان قلبه وقال : « الآن طبت نفساً بالبقاء معك هذه الليلة ، وسأحمل رسالتك » وشكره الأمير ، واقتلع السنونو الياقوتة من قبضة السيف وضم عليها منقاره وطار ، . . . طار فوق برج الكنيسة ورأى تماثيل الملائكة قد قدت من الرخام الأبيض اذا رأيتها

حسبتها لؤلؤاً منثورا ، وطاف بالقصر الملكي فرأى مرقصاً ونعيماً ونوراً ، وخرجت الى شرفة القصر غادة جميلة مستندة الى ذراع صاحبها فأنصت إليهما فاذا الرجل يقول « ما أغرب الحب وما أشده » قالت الفتاة لاهية عن حديث الحب بحديث الثياب « ما أشد لهفتي على ثوبي الذي أعده لليلة المرقص ! لقد كلفت الحائكة وشيه بأزهار العواطف، ولكن الحائكة كسول ، » وطار فوق النهر وأبصر المصابيح تتدلى على ساريات المراكب ، وطاف بحي اليهود ، فرأى شيوخهم يتنازعون في البيع والشراء ، ويزنون الدراهم بموازين من نحاس ، وحط على الدار الحزينة ونظر من خلال النافذة فاذا الصبي يصطلي بنار الحمى فلا يهدأ مضجعه ، واذا الأم قد احتواها التعب فقامت الى فراشها . ونفذ السنونو الى الغرفة وألقى بالياقوتة على المنضدة ، ثم طاف يرفرف بجناحيه على الصبي . تحرك الصبي في مضجعه وقال « ما أعذب هذا النسيم العليل ، لعلي واجد من المرض خلاصاً » ثم أخذته سنة مريحة .

عاد السنونو إلى الأمير السعيد ، وقص عليه ما رأى وما فعل وقال « عجباً ! انني لأشعر بالدفء في هذا الجو البارد ! » قال الأمير « ذلك بما وفقت اليه من فعل الخير »

وساد صمت عميق ، كان السنونو فيه مطرقاً مفكراً وهو اذا فكر نام ! ! ولما انبثق الفجر طار الى النهر واغتسل بمائه فأبصره استاذ علم الطير ، وراعه أن يرى السنونو في فصل الشتاء ، وعد هذا من خوارق الطبيعة ، فحرر مقالا طويلا نشره في الصحيفة المحلية وقرأه الناس جميعاً ولم يفهموا منه شيئاً لأنه حشاه بألفاظ لا يفقهون لها معنى . قال السنونو وقد هزه الطرب « الليلة سأطير الى مصر » وقام يزور آثار المدينة وأعلامها ، فحط على مئذنة الكنيسة ، وطابت نفسه بالاستراحة عليها ثم طار ، وكان حيثما طار سمع تغريد العصافير يقول بعضها لبعض : « ما أعجب هذا الطائر وما أغربه ! » فلما استمتع من رحلته وطلع البدر خف الى الأمير السعيد وقال له « هل لديك رسالة أحملها الى مصر ، فأنا مبيمها الساعة »

قال الأمير السعيد « أيها السنونو الصغير هل لك أن تبقى معي الليلة ؟ » قال السنونو « إن لي بمصر رفاقا يترقبون عودتي . وما أحسبهم في الغداة الا طائرين الى الشلال الثاني ينعمون بطلعة فرس النهر مضطجعاً بين أوراق البردي ويسعدون بلقيا الآلهة ممنون جالساً على عرش من الجرانيت يناجي النجم طيلة الليل ، حتى اذا أقبلت نجمة الصباح حياها بصيحة عالية ثم لزم الصمت ، ويرقبون الأسود الصفراء ذات العيون الخضراء تنساب الى الشاطئ وتستقي ثم تزأر زأرة تذوب في صداها زأرة الشلال ، » قال الأمير « أيها السنونو الصغير ! في أقصى المدينة رجل يقيم في غرفة وقد أكب على أوراق بين يديه، وأمامه باقة من زهر البنفسج الذابل، وله شعر مجعد ، وشفتاه كحب الرمان ، وعيناه ناعستان ، أراه جاداً في نسج قصة تمثيلية يعدها لمدير المرسح وقد ألح عليه البرد والفقر فما يستطيع منهما خلاصاً ، وما يستطيع معهما التحرير ، »

قال السنونو وقد رق قلبه « انى مقيم معك الليلة ، فهل أنت مرسلي اليه بياقوته أخرى ؟ » قال الأمير « لقد نفد الياقوت الأحمر ، وما أملك الا عيني ، وهما من الجوهر الأزرق النادر ، جلبت حبتاهما من الف سنة من بلاد الهند ، فاقتلع واحدة منهما وخذها الى الرجل يبيعها للجوهري ويشتري طعاماً وناراً فيقوى على اتمام قصته » قال السنونو « أيها الأمير السعيد ، لا أقبل لي بما كلفتني ، وما أستطيع على بعض هذا صبراً » وذرفت عيناه . قال الأمير « افعل ما أمرتك به » وفعل ، وطار الى القصصي فنفذ الى غرفته من ثغرة في سقفها ، وكان الرجل قد أسند رأسه الى يديه فصمت أذناه ، ولم يسمع حفيف أجنحة السنونو ، ثم رفع رأسه وبهره بريق الجوهرة الزرقاء وسط باقة البنفسج الذابل ، فافتر ثغره عن ابتسامة فيها الزهو وفيها الاعجاب وقال : « لقد آن للناس أن يحسنوا تقديري ، ما أحسب هذه العطية الا من عظيم قد أعجب بقصصي وما أحسبني الآن الا قادراً على اتمام القصة » ثم أشرقت في نفسه السعادة ، .

وفي الغداة طار السنونو الى مرفأ المدينة وجلس الى سارية سفينة فأشرف على الحمالين وهم يجتذبون الصناديق الثقيلة وقد شدوها الى الحبال ، وألقى اليهم السمع وهم يصيحون جماعات كلما اجتذبوا صندوقاً فصاح بهم السنونو وقال « أنا طائر الى مصر » فلم يحفل به أحد ، ثم طار في ضوء القمر الى الأمير السعيد وقال « جئت الآن لأستودعك الله » قال الأمير « هل لك أن تبقى معي الليلة ؟ » قال « نحن في زمان الشتاء وسيشتد البرد بهذه المدينة

ومالى بها بعد اليوم مقام . سأطير الى مصر فأنعم بشمسها الحارة تنصب على رءوس النخل الأخضر ، وأسعد برؤية تماسيحها، وقد اطمأنت الى أرض رخوة واستمرأت الكسل ، ودارت عيونها تبصر ما حولها ، وما أحسب رفاق إلا جادين فى اتخاذ أعشاشهم فى معبد بعلبك ، ترقبهم أعين الحمامات الرقطاوات تتناجى بأعذب الأنغام ، أيها الأمير العزيز لست بعد اليوم مقيما ، وما أنسى فضلك وجودك ، وسأعود اليك فى الربيع وفى فمى جوهرتان جميلتان أعوضك بهما عن الجوهرتين اللتين جدت بهما ، ستكون احداهما أشد حمرة من الورد ، والأخرى أشد زرقة من البحر . » .

قال الأمير « هنا فى الميدان فتاة تبيع أعواد الكبريت ، ولقد سقطت الأعواد من يدها وأصابها البلل فما تصلح للبيع ، وستلقى الفتاة من أبيها نصباً ، وانى لأراها باكية ، وأراها حافية القدمين حاسرة الرأس ، . . اقتلع عيني الأخرى وجد بها عليها عل أباها يعفيها من سوط عذابه » قال السنونو « أما البقاء معك هذه الليلة فنعم ، وأما ماتأمرنى به فلا ! اتحسبني لا أعصيك فى هذه فاقتلع عينك فتصبح مكفوفاً ! ! » قال الأمير « بل لا تعص لى أمراً » . . . فما عصاه . . . !

وطاف فوق رأس الفتاة وأسقط الجوهرة فى يدها . قالت « ما أجمل هذه الزجاجة ! وسارعت الى بيتها ضاحكة مستبشرة ، » وعاد السنونو الى الأمير وقال له « أما الآن فحق على البقاء معك ، فقد أصبحت كفيفاً ولا غنى لك عني ! » قال الأمير المسكين « بل ارحل الى مصر » قال السنونو « مابى الى الرحلة حاجة ، ولن أبرح مقامك » وطوى رأسه تحت جناحيه واستكن بين قدمى الأمير »

وفى الغداة جلس على كتف الأمير وأخذ يقص عليه من أنباء الدنيا عجباً ، قص عليه أنباء طير مصر المعبود ، وكيف وقوفه على ضفتى النيل يمسك بين منقاريه سمكاً ذهبياً ، وقص عليه أنباء أبى الهول وقد عمر عمر الدنيا واتخذ الصحراء مسكناً ، وأوتى علم كل شئ ، وقص عليه أنباء التجار يسيرون الهوينى بجانب إبلهم وفى أيديهم مسابح من الكهرمان يذكرون عليها اسم الله ويسبحون بحمده ، وقص عليه أنباء الأرقط الذى يأوى الى سعف النخل ، وله من الكهنة سدنة عشرون يطعمونه فطيراً معسولا ، وقص عليه أنباء الأقزام وماشب بينهم وبين الفراش من حرب فى البحر ،

وألقى اليه الأمير السمع ثم قال « أيها السنونو الصغير ، فى حديثك العجب ، ولكني أرى فى شقاء الرجال وفى شقاء النساء ما هو أعجب ، ليس فى العالم مأساة أمعن فى الأسى من الشقاء » طر أيها السنونو فوق مدينتى . وائتني بأنباء ما ترى ، ومالا أرى .

طاف بالمدينة فرأى دوراً منجدة ، وقصوراً مشيدة . وأغنياء ينعمون وعلى أبوابهم سائلة محرومون ، :

وطار الى أزقة يغشاها الظلام فرأى أطفالاً يتضورون جوعاً . ترنو أبصارهم المتلهفة الى الشوارع المظلمة . ورأى تحت جسر صبيين قد استلقيا على الأرض متعانقين يتقيان شر البرد ، ويهمس أحدهما فى أذن الآخر « ما أشد الجوع » فينهرها حارس الليل ويقول « ما ينبغى لكما أن تقيما فى هذا المكان » فيفران وقد صب عليهما عذاب عنيف من الجوع والبرد والمطر . !

وعاد السنونو الى الأمير وحدثه بما رأى ، قال الأمير « إهذه لفائف الذهب فوق جسدى فانزعها عنى ورقة ورقة وهبها الى الفقراء ، فقد جبل الناس على حب الذهب ، كأنهم يرون فيه السعادة . »

وقام السنونو ينزع الذهب عن الأمير ورقة بعد ورقة ، حتى بدا جسمه كالح اللون شاحبا ؛ وطاف بها على الفقراء يغدقها عليهم أرزاقاً ، فتهللت وجوه الأطفال واستخفهم الطرب ، فملأوا شوارع المدينة بشراً وسروراً وقالوا « لقد أوتينا طعاماً » .

ثم قسا الشتاء على المدينة وصب عليها صقيعه وجليده ، وتدلى الثلج من النوافذ ، وخرج الناس يبتغون أرزاقهم ، وقد اكتسوا الفراء ، وخرج الأطفال يلعبون ويتسابقون زحفاً على الثلوج ؛ كل هذا والسنونو تضنيه تباريح البرد ، ولكنه لا يبتغى عن الأمير حولا . يبتغى فى الأرض رزقه من فتات يسترقه من حانوت الخباز ، ويبتغى دفئه من تحريك جناحيه الضعيفين . ولكنه أحس أخيراً بدبيب الموت يسرى فى جسمه المقرور ، وأحس بقواه تضعف وتخور ، حتى لم يقو على أن يطير الا مرة واحدة يصعد بها الى كتف الأمير ، وقال « وداعاً أيها الأمير العزيز ، أتسمح لى أن أقبل يدك » قال الأمير « انى لسعيد بما عزمت عليه من الرحلة الى مصر — أيها السنونو الصغير — لقد طل مكثك

معى . خذها قبلة من فمى فانى أحبك » قال « مارحلتى الى مصر ولـكن الى دار البقـاء ، وما يفزعنى الموت فهو صنو النعاس ، أليس هو كذلك ؟ » ثم طبع على فم الأمير قبلة . . . ثم رفرف بجناحيه . . . وسقط بين قدميه . . . ميتاً » .

فى هذه اللحظة صمت فى جوف التمثال فرقعة داوية ، وكان قلبه وقد قد من الرصاص قد انشطر شطرين .

وفى الصباح مر عمدة المدينة بالميدان وحوله أعضاء المجلس البلدى فشهدوا التمثال وقد أصبح عاطلاً من حلاه ، وقال العمدة « ما أقبح منظر الأمير السعيد ! » قال أعضاء المجلس « حقاً ما أقبحه ! » وكانوا دائماً يرددون ما يقوله العمدة — ثم صعدوا الى التمثال ليتبينوا شأنه وقال العمدة « لقد ضاعت حلاه ، وسقطت عن قبضة سيفه ياقوتتها الحمراء ، وسقطت عن عينيه جوهرتاها الزرقاوان ، وتعطل جسده عن لفائف الذهب ، وهو بهذا لا يفضل الشحاذ الا قليلا » قال أعضاء المجلس « وهو لا يفضل الشحاذ الا قليلا » قال العمدة وها كم طائراً قد مات بين قدميه ، أرسلوا فى المدينة الى الطير نذيراً ألا يموت أحد فى هذا المكان ، وحرر كاتب المدينة اعلاناً كتب فيه « ممنوع موت الطيور هنا » .

وكوا تمثال الأمير السعيد ، وما بهم اليه من حاجة بعد أن زال عنه جماله ، ثم صهروا معدنه ، وعقد العمدة مجلساً يتشاورون فيما يستخدم فيه معدنه المصهور ، .

قال العمدة : « ما أرى الا أن تعملوا منه تمثالاً ، ويكون التمثال لى » وقال كل عضو من أعضاء المجلس : « ويكون التمثال لى » فدبت بينهم الشحناء ، وماج بعضهم فى بعض وما زالوا مختلفين ، .

قال أحد العمال الذين يصهرون معدن التمثال « هـذه قطعة من الرصاص لا تذوب فى النار ولا تلين » والقى بها على كومة القمامة ، وكان على الـكومة جثمان السنونو »

فلو قال الله للملائكته ائتونى باثنين من أعز ما لقيتم فى المدينة ، وأتاه الملائكة بقلب الأمير وجسم الطائر — لقال لهم « صدقتم فيما اخترتم — وسمعت جنتى هذا الطائر الصغير يغرد فيها ، وهذا الأمير السعيد يسبح بحمدى »

أحمد الطاهر

جاليليو

(بقية المنشور على صفحة ٩٥١)

بل قل لنفرض أنها تدور حول الشمس ، لأن من الخطر عليك أن تقول بأنها تدور ، ولـكنه من المأمون قولك بفرض دورانها) وبذلك ظل جاليليو يفرض فى الظاهر وهو مؤمن بالحقيقة فى الباطن مؤكداً أن الحق الغلبة فى النهاية .

وقد ولد اسحق نيوتن فى ٨ يناير سنة ١٦٤٢ ، وهو اليوم الذى توفى فيه جاليليو ، وبذلك بدأ فصل جديد من حيث انتهى آخر . ولم تؤيد نظرية الأرض وموقعها من المجموعة الشمسية ودورتها فقط ، بل أصبحت العقول تدرك جيداً حركات الـكواكب وقانونها أيضاً .

وقـد أصيب بالعمى فى أواخر حياته ، إلا أنه وهو أعمى كشف عن أقمار زحل ، وبحث ودرس البقع الشمسية مستعيناً على ذلك بتلاميذه بدل عينيه . وهو بشير لنيوتن وطليعة له ، واذا كان نيوتن هو الذى وضع قوانين الحركة وأثبت بالدقة الرياضية قانون الجاذبية بين الـكون المرئى والقاعدة المضبوطة لحركاته ، فان جاليليو هو الذى مهد إلى ذلك وقاد نيوتن الى الحقيقة الخالدة .

ولم يستطع أى بلاط بابوى فى هذا الوقت تقييد أفكاره الطامحة ، وأبحاثه العلمية ، بل اكتفى بارساله أخيراً من روما الى دير سينا ، وهو دير تطل جدرانه على سهول توسكانى ، اعتكف فيه أشهراً قلائل ، ثم سمح له بالعودة الى فلورنسا حيث قضى الأعوام الثمانية الأخيرة من حياته فى عزلة تامة امتثالاً لأمر روما ، إلا أنها عزلة لم تعرف قط السكون بل كان جاليليو فيها يغلى بأبحاثه كالرجل .

وقد لحقه الأسى وحلت به عاهته فى كبره ، وكان أعمى عند مازاره جون ملتون فى إركترى عام ١٦٣٨ ، وقد واصل رسالته العلمية وهو بعاهته فاخترع وأملى اختراعاته . وانتابته حمى بسيطة وهو يملى ملحوظاته على تلميذين من حواريه ، فأسدلت على حياته الطويلة ستاراً كثيفاً أبدياً ، ولـكن برغم ذلك بقى للعالم من هذه الحياة بحث خالد فى الأرض وعقل إنسانى جبار .

عبد الرحمن فهمى